عن الحرب وعن المقاومة.. بعد العدوان الاسرائيلي على لبنان

خليل قانصو*

■ نقل رودلف الكاره (Rodolf El-Kareh) في مقالة له تضمنها العدد 101 لمجلة دراسات فلسطينية (خريف 2006) الصادرة في فرنسا، الصفحة 100، الفقرة التالية من نص نشرته صحيفة امريكية في 25 تموز (يوليو) الماضي، أي أثناء الحرب الاسرائيلية على لبنان، لواحد من منظري المحافظين الجدد: «هل أن تطور الديمقراطيات الليبرالية بقي دون المستوى، بحيث هي غير قادرة على خوض حرب حاسمة بسبب تأثير هواجسها الانسانية تجاه الآخرين ؟..وماذا لو أن خطأنا التكتيكي في العراق كان ناتجا عن عدم قتلنا، في بداية تدخلنا، ما يكفي من السُنّة، لارهابهم ولافزاعهم منا حتى يقبلوا أي شيء؟ أليس بقاء من هم بين 15 ـ و35 سنة، من رجال السُنّة على قيد الحياة، باعثا للتمرد ومسببا أساسيا للعنف الطائفي حاليا؟... كيف سيكون الحال، اذا كانت اسرائيل تملك كل القدرات للوصول الى أهدافها، ولكنها لا تستطيع اظهارها دون قيود، ضد عدو أكبر خطرا، وأقل احساسا والتزاما بالمبادئ، وأكثر بربرية من الوحوش الذين يقودون الانتفاضة ذاتهم؟».

اذن المسألة ليست، هل انتصرت المقاومة أم لم تنتصر، بل هي الحرب التي تشنها اسرائيل والولايات المتحدة على المنطقة العربية، لاجبار شعوبها على القبول «بأي شيء» يقرره المعتدون. هذه الحرب ليست من صنع خيال «المتطرفين» ولا هي نتيجة اثارة «المقاومين من أجل المقاومة» لها. بدليل أنها شاملة في استهدافها لانسان، سُمِّي، ووُصِف طبعه ونُمِّط، دون أن يُسأل، ودون أن يُسمع، انكارا لذاتيته ولقدرته ولحقه في أن يكون، حسب قناعاته الفردية وحسب مؤهلاته المكتسبة. وهذا ما يؤدي ضمنيا الى الاقصاء والافناء، وما يشير الى وجود جامع بين هذه الحرب وبين تلك التي شهدتها المجتمعات الغربية في بدايات القرن الماضي، للتخلص من كل الذين صنفوا يهودا، بمعنى أن ما يواجهه «العربي سواء المقيم في بلاده أو المهاجر، يشبه الى حد ما، ما كان يواجهه «اليهودي»، قبل رد الاعتبار اليه في الغرب وقبل اعادة حقوقه له كانسان، ينتمي الى «العالم المتحضر» وليس «الى عالم البرابرة». أي أن الذين ارتكبوا جريمة اعدام «اليهود» لم يتغيروا. ان ما تغير هو نظرة هؤلاء المجرمين الى «اليهود»، واعترافهم بخطأ ارتكبوه عندما عدوا «اليهود» من «البرابرة». كان بعض مرشحي اليمين الفرنسي، في سنوات العشرين من القرن الماضي، يستطيعون الجهر بأن من يقترع لصالحهم، انما يقترع ضد اليهود، وقلما تخلو اليوم معركة انتخابية في فرنسا دون تصريحات مماثلة بعد أن استبدل فيها اليهودي بالعربي.

هناك مؤشرات كثيرة تظهر طبيعة هذه الحرب وتكشف مدى خطرها على كينونة العربي وعلى وجوده، أينما كان، حتى في البلاد الغربية التي هاجر اليها. من الواضح أن ما يجري في العراق، يتجاوز قضية نظام غير مرغوب به، الى اعادة هيكلة منطقة والى فرض وصاية امريكية كأمر واقع. وكذلك هو الحال في فلسطين في ظل الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، حيث تصطف الدول الغربية، الى جانب اسرائيل، لابتزاز الشعب الفلسطيني بالقوة وبالتجويع من أجل التخلي عن حقوقه مقابل الخبز. وتجلت الغاية من هذه الحرب أيضا في لبنان، حيث تحول الجيش الاسرائيلي، بطيرانه وبمدافعه وبجراراته الى مؤسسة أشغال عامة لهدم المنازل ولدفن من بداخلها تحت الأنقاض. أما في بلاد الغرب، فكل الوسائل التي استخدمها في الماضي المعادون للسامية، بوجهها «اليهودي» هي الآن متاحة أمام العنصريين المعادين للسامية في وجهها «العربي» بعد أن «عُمِّد اسلاميا». لقد رُسم «اليهودي» أيضا في أوروبا، رُسمت «طبائعه» و«قبائحه»، وصدرت الكتب المليئة بالافتراءات ضده، وأطلقت الشائعات حول دوره في زعزعة الأمن الاجتماعي وفي نشر الأوبئة كالطاعون، وفي تسميم الأنهار والينابيع. وبالتالي فان حملة الكراهية ضد العرب حاليا، لا تختلف عن سابقتها من حيث الجوهر، أي أن الهدف منها هو ايجاد مبررات للحرب الدائرة في المنطقة العربية، اضافة الى اثارتها ضمنيا «لقضية التعارض» بين المواطنة في مجتمعات الغرب وبين الأصل العربي. مثلما كان «لليهودي» في السابق «قضية» في بلاد الغرب، جاء الآن دور «العربي» ليحدد الرسّام الغربي شكله، وليحلل النفساني أو المختص بعلم الاناسة طبائعه وعاداته ومعتقداته، وليستخرج المفكر المعاني التي يعبر عنها كلامه أو التي تفصح عنها تصرفاته. لا يتعلق الأمر بحرية الرأي، ولكن مشكلة هذا الانتاج «الفكري والفني» أنه ليس جديدا لا من حيث الأسلوب ولا من حيث المضمون.

اذاً الحرب دائرة ومستعرة ومرشحة للتصاعد، وهي مفروضة على العرب، وليس لهم أي دور في التحريض عليها، أو في أسبابها. انها حرب عدوانية استعمارية تشن عليهم في ديارهم، وتلاحق المهاجرين منهم. وبالتالي فان السؤال ليس ما اذا كانت المقاومة مبررة أو لا، لأن الخيار بين المقاومة أو عدمها غير موجود أصلا، أو أنه يساوي الخيار بين الحياة والموت..

االمقاومة رد فعل اضطراري من الذين يتعرضون للاعتداء. هذا لا يعني أن جميع المعتدى عليهم يتحولون، آليا الى مقاومين. فالناس ليسوا سواسية في القدرة على تحمل نتائج العدوان. النازحون اللبنانيون لم يلجأوا كلهم الى المدارس أو الى حديقة الصنائع في بيروت. كثيرون منهم كان لديهم الوسيلة لاستئجار دار، وبعضهم تمكنوا من مغادرة البلاد بامكانياتهم الذاتية، وآخرون تم اجلاؤهم كرعايا أجانب الى البلاد التي يحملون جنسياتها. ومن المعروف أيضا أن العدوان لا يطال، غالبا أصحاب الثروات ولا كبار المسؤولين السياسيين والعسكريين، فهؤلاء يملكون شققا وقصورا في أحياء الأغنياء في لندن وباريس وجنيف، من المؤكد أن بدلات أتعابهم الوظيفية لا تكفي لشرائها، وهم في ذلك لا يختلفون عن أمثالهم من حكام بلاد العالم الثالث. ثم ان في الأوطان المجزأة، تكون علاقة الأجزاء أحيانا ببعضها علاقة عدائية، كعلاقة الاخوة الأعداء يتحاسدون ويتباغضون ويستقوون بالغريب على بعضهم البعض. من الطبيعي اذن أن تتباين المواقف، ظاهريا في مواجهة العدوان كباعث قاطع للمقاومة. ما هو أساسي، ومركزي، هو العدوان، وليس المقاومة، وبالتالي فان المنطق والوضوح يُلزمان الخطاب السياسي، كما الاجتهاد الفكري، في ظروف ما بعد الحرب الأخيرة على لبنان، تحديد من هو المعتدي ومن هو المعتدى عليه، أي بتعبير آخر يجب معرفة ما اذا كانت اسرائيل معتدية على الجنوبيين وعلى البقاعيين، أو أن هؤلاء هم الذين اعتدوا على اسرائيل. ومن بعد ذلك، يكتسب الخطيب أو المفكر مصداقيته بادراج الحجج التي يبني عليها موقفه من المعتدي ومن المعتدى عليه.

ولا بد استطرادا في السياق ذاته من الاشارة الى أن تعريف المعتدي، ينفي من حيث المبدأ امكانية الاعتداء عليه. ومهما اختلفت الأساليب البيانية، والممارسات العملية، تجاه الصراع الناتج عن العدوان، فانها تفضي كلها في النهاية الى موقفين اثنين: مؤيد وداعم للاعتداء، أو مقاوم ومناهض له، بمعنى أن الموضوع الأساسي هو الاعتداء، وليس المقاومة وما اذا كانت قد انتصرت في معاركها الأخيرة أو أنها لم تنتصر بعد. أن الذين يدعون الحياد أمام صراع يتواجه فيه المستعمِر والمستعمَر هم في الحقيقة ماكرون ومنافقون، أما اذا كان الصراع الدائر على أرضهم وضد شعبهم، لا يمنعهم من الالتئام حول مائدة المعتدي، فإن المكر والنفاق لا يكفيان لحجب ما هو في الواقع خيانة.

هل تعتدي أسرائيل على لبنان وهل تغيرت طبيعتها الاستعمارية؟ هذا هو السؤال الذي يتوجب على الشعوب العربية، ومنهم اللبنانيون طبعا، الاجابة عليه، لما له من دور عظيم في انتاج أزمتهم المتفاقمة بحيث تجاوزت قضية تصلب أنظمتهم السياسة، الى اصابة مجتمعاتهم بالعجز الفكري وبالانحلال الثقافي.

ولا بد في معرض البحث عن هذه الاجابة، من ادانة الفارق الكبير بين القول وبين الفعل بين الشكل وبين المضمون، الذي يطبع تصرفات الكثيرين من الفاعلين في المجتمعات العربية على كافة الساحات، السياسية والفكرية والدينية. أي أن البون يبدو كبيرا بين الدين وبين المتدينين، بين ادعاء الفضيلة وبين الممارسة الحقيقية، بين البيانات السياسية وبين السياسة الفعلية، فعلى سبيل المثال، جاء في النظام الأساسي لحزب البعث، الذي أقر في 17 حزيران (يونيو) 1947 ما يلي: «حرية الكلمة والاجتماع والمعتقد والفن مقدسة. ليس من حق أي سلطة قمعها أو الغاؤها ــ ان موقع المواطنين، بعد أن يكون قد تحقق تكافؤ الفرص، مرهون بالعمل الذي يؤدونه خدمة لتقدم وازدهار الأمة العربية، دون الأخذ بأي أعتبار آخر ــ حزب البعث العربي هو ديمقراطي، انطلاقا من قناعته ان السيادة هي للشعب، هو وحده مصدر السلطة والحكم. ان شرعية الدولة تأتي من انبثاقها عن ارادة الجماهير وحرمتها مصانة بقدر حريتهم في الاختيار».

ان ما سبق يدلل على أن العرب أضاعوا المعنى، أو أنهم مصابون بشرود ذهني، وكأن المواطن والحاكم في البلاد العربية، يقومان باداء مسرحية تصور الأول يهذي ويحلم بالحلول مكان الثاني، بينما هذا الأخير يوهمه باستمرار على طريقة المشعوذين أن الهلوسة يمكن أن تصير واقعا شرط عدم الاستفاقة منها.

أن أسرائيل معتدية على لبنان منذ قيامها في 15 أيار (مايو) 1948، وتجدد هذا العدوان بعد سنة 1968، ليتحول في السبعينيات الى انتهاكات متكررة للسيادة اللبنانية، ثم الى غزوات مع ابقاء مواقع دائمة في الجنوب، والى مشاركة، مباشرة وغير مباشرة في الحرب الداخلية اللبنانية التي اندلعت نارها سنة في 13 نيسان (ابريل) 1975. وتطورت هذه المشاركة سنة 1982 الى احتلال جزء كبير من لبنان اشتمل على العاصمة بيروت وعلى محاولة صياغة هيكليته السياسية. وهذا يكفي للدلالة على خطأ من يدعي أن اسرائيل لا تشكل قضية كبيرة، أو تحديا، للسلام الاجتماعي في لبنان. وبالتالي فان أقل ما يتوجب على اللبنانيين، ان هم أرادوا التعاون ليكون لهم وطن موحد الأجزاء، هو ابطال مفعول هذه القضية عليهم، أي التخلص من أدوات فعلها في السياسة اللبنانية. ولكن الواقع يُبقي الأمل في أن يتحقق ذلك ضعيفا للغاية.

قد لا يكون تنشيط الاحتجاجات من وقت الى آخر، ضد امتهان الرموز الدينية في الغرب بواسطة الرسوم والكتابات والمحاضرات، من باب الصدفة. ان من حق الآخر أن يفصح عن رأيه، ولا يجوز لأحد من حيث المبدأ، أن يطالب بالحد من حرية التعبير. أما اذا كانت الافتراءات ضد الدين، تدخل في اطار حملة سياسية عنصرية معادية، فان استهداف الدين ليس في الحقيقة بقدر استهداف فئة من الناس عن طريق صناعة صيغة غلوطة لمعتقداتهم ومن ثم تفسير ما يفعلون وما سيفعلون تطبيقا لها واهتداء بتعاليمها. المسألة اذا لا علاقة لها بالدين، انها رسالة، لا تختلف عن الرسالة التي وجهت في السابق الى اليهود قبل تجميعهم مقدمة لنفيهم أو للالقاء بهم في لهب الكراهية. وهنا يمكن القول ان الذين تظاهروا مطالبين بالاعتذار عن الرسوم وعن التلاعب بالتاريخ، لم يتبينوا ما وراء ذلك من مقاصد، من ضمنها بلا شك احداث ضجيج لتغطية أخبار القتل في العراق وفي فلسطين وفي لبنان احراجا لمناهضي السياسات الاستعمارية في الغرب واثارة للشبهات حول المواطنين الغربيين من أصل عربي. ومن هذه المقاصد أيضا خلق حركة «مقاومة جديدة» للدفاع عن «الله وعن أنبيائه»، هذا اذا افترضنا أن الحاجة موجودة لمثل هذه «المقاومة» من منظور ديني، وأن هناك ما يبررها في هذا الوقت حيث يُضرب الانسان في بلاد العرب في منزله وفي أطفاله، كما تكافح الجراثيم الناقلة للأمراض الوبائية، باتلاف بيوضها في الأمكنة التي توضع فيها، وبتقطيع حلقات نموها، وفصلها عن بعضها البعض. وليس مستبعدا، وهذا ما يحدث عادة، أن تحصل «المقاومة الجديدة»، ومن دون أن تعلم أحيانا، على دعم يمكنها من ابتلاع «المقاومة» التي سبقتها، وهكذا حتى تنتفخ بطن «المقاومة» «بالمقاومات» التي تملأ جوفها كالطفيليات، حتى تقتلها.

ان المقاومة الحقيقية، تكون من أجل انتزاع الحرية، حرية التعبير عن الرأي وحرية التجمّع والالتقاء والتبادل واقرار مشروع جمعوي. فالحرية حاجة للذات كي تحقق كيفية ومعنى وجودها، كما هي شرط ضروري لاستقلال الجماعة ولتمكينها من الدفاع عن نفسها، ضد نزعة العدوان، ليس فقط رغبة منها بالبقاء، بل احتراما للانسانية. من البديهي أن موقفا بربريا هو الذي يتخذه طرف عربي أو دولي، لا يعلن استنكاره واشمئزاره من الساسة الاسرائيليين، عندما ينسفون منزل عائلة، نفّذ أحد أبنائها عملية ضد الاحتلال. أي صفة يستحقها هؤلاء الساسة، وأصدقاؤهم وهم كثر، عندما يرسلون طائرة لتلقي قنابلها ليلا، دون أي سبب، على دار يبيت فيها أطفال وأولاد مع أمهم وأبيهم. وما هو هذا العالم الذي لا يحاكم نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي، الذي قال «يجب أن تُمحى كل قرية في الجنوب اللبناني تطلق منها قذيفة على اسرائيل» (نقله أ. الكاره، المصدر ذكر أعلاه). ان حصار القرية أو المدينة يعني أن علاج الحالات المرضية المستعجلة هو ممنوع، وأن المرأة الحامل يجب أن تموت، هي ووليدها اذا احتاجت لعملية قيصرية، وأن مريض السكري محروم من الدواء، اذا استمر الحصار شهراً كاملا. لم تصدر أية ادانة من المجتمع الدولي لحصار القرى اللبنانية، ولم يعتبره أحد انتهاكا للشرعية الدولية. وهذا يثبت، أن عالم اليوم، هو عالم بربري، عالم متوحش لم تكتمل أنسنته، يخضع لقانون القوي. ألغي حكم الاعدام في المجتمعات الغربية المتقدمة، وهذا بالتأكيد اجراء ايجابي، ولكن الدول الغربية لم تطالب حكومة اسرائيل التي تلجأ يوميا الى ما يسمى «اغتيال المستهدف»، بالكف عن اعدام الناس عشوائيا في الطرقات وعلى الشواطئ في فلسطين وفي لبنان. ستمائة وخمسون ألف عراقي، ماتوا بسبب أحداث العنف، منذ احتلال الأمريكيين لبلادهم. فهل يستطيع الانسان، ولا سيما اذا كان ضعيفا، أن يحيا وأن يكون في مثل هذا العالم، دون مقاومة، وكيف يمكنه أن يقاوم؟

السؤال اذا، كيف تقاوم وليس أبداً لماذا تقاوم أو بأي سلاح تقاوم، ومن هم الذين يدعمون مقاومتك. المقاومة تكون أولا في الامتناع عن تنفيذ ما يريده العدو منك، في الرفض وفي عدم القبول، في المقاطعة، وفي تحريم التعامل مع ممثليه، وفي أن لا تكون اداة أو رسولا له. ان المستعمِر هو كالذي يُخرج بالقوة عائلة من منزلها ويستولي عليه. من البديهي، أنه أقوى، ولو استطاع أهل البيت صده ومنعه، لما صاروا بلا مأوى. ينجم عن ذلك أن الاستعمار هو في جوهره صراع بين القوي من جهة وبين الضعيف من جهة ثانية، ينتهي اما بدمار المكان المتنازع عليه، واما بابادة أصحابه الشرعيين، وهذا يسمى «الحل النهائي»، الذي طُبق على الهنود الحمر في أمريكا، وكاد النازيون أن ينجزوا تطبيقه على اليهود في أجزاء أوروبا التي وقعت تحت سيطرتهم، واما، أخيرا برحيل المستعمِر وبعودة الحقوق الى أصحابها.

ولكن القوة التي تتيح للمستعمِر الاستيلاء على الدار، لا توفر بالضرورة له الراحة والهدوء، لأن الذين حل مكانهم سوف يتحيّنون دائما الفرصة، رغم ضعفهم، لتحطيم زجاج المنزل بحجارتهم، أو لالقاء زجاجة حارقة على مركبته، الى غير ذلك من أعمال القصد منها ازعاجه واقلاقه وإيلامه، وصولا به الى أقصى حدود طاقته على الاحتمال، ودفعا له الى اللجوء الى خيارات نهائية كارتكاب الحماقات الاجرامية، أو الرحيل.

وبالطبع فان المقاومة هذه، لا تخدم مصالح المستفيدين، سياسيا واقتصاديا من وجود المستعمِر. اذ ما من شعب احتلت أرضه وامتهنت كرامته، الا وخرجت منه فئة استغلت ظروف الوطن الصعبة. ولم تسلم الشعوب العربية، بالتأكيد من هذه الشائبة، لا في لبنان ولا في غير لبنان، ولكن ما يميزها حقيقة، هو أن أعداء المقاومة باتوا يجهرون بعدائهم لها، ولايخفون استقواءهم عليها بدول الغرب وفي مقدمتهم الولايات المتحدة، بينما هي معقودة اللسان، حبيسة نطاق الطوائف والمذاهب والعشائر. وهذا ما يجعل من سماتها الأساسية سمة الجزئية التي تنعكس في الخطاب المقاوم، في معظم الأحيان خلوا من الاشارة الصريحة الى الانتهازيين الذين يستقدمون المستعمِر الى الداخل، دعما لأسوار قلاعهم الطائفية والمذهبية والعشائرية، والفئوية. وبالتالي فان المعتدي لا يجد صعوبة، مهما اشتدت المواجهة بينه وبين المقاومة على ساحة عربية، في ايجاد طرف على الساحة ذاتها يقبل التفاوض معه في سبيل اضعاف المقاومة وفي سبيل اخراج حلول تتعارض مع أهدافها. وأحيانا كثيرة يستطيع المعتدي استدعاء أطراف عربية أخرى، لدعم مناورته لمحاصرة المقاومة في مكان ما وللقضاء عليها. وهنا قد يكون مفيدا تسليط الضوء على استفحال تشظي المنطقة العربية الى ولايات حكامها دائنون للمستعمِر طائعون له مما يفسح المجال امامه لاستنباط ما يناسبه من أدوار يوزعها عليهم اربكا واحباطا لكل تحرك مضاد لوجوده .

خلاصة هذه القراءة للواقع العربي بشكل عام، وللواقع اللبناني بشكل خاص، هي أن المقاومة ضد المستعمِر ما تزال غير قادرة على حسم اشكالية موقفها في الداخل، من السلطة ومن الفرقاء، الذين يعتبرون وجودها بالذات تجاوزا لنطاق نفوذهم وخطرا على مواقعهم. السبب الذي يدفعهم الى البحث عن سبل الخلاص منها. وربما يكون، الانقسام بين المقاومة وبين أعدائها في الداخل، وكذلك اطمئنان كل من الطرفين الى صلابة قاعدته الشعبية، أيا كانت التصرفات التي يقدم عليها، مرجعهما الى الذهنية القبلية، التي تقمصت الفكر الديني التوحيدي، بما هو اقصاء للآخرين، ليس فقط رفضا للتبادل وللتباحث معهم في شأن المشاركة والمعاضدة، بل وأيضا انطلاقا من ارادة فرض الهيمنة والاستعلاء عليهم. ولا شك أن لهذه الذهنية، دورها في انتاج أزمة المجتمعات العربية المتفاقمة تأخرا وتراجعا، حتى كادت تستعيد سيرتها الأولى قبائل متنازعة يغزو بعضها بعضا.

ان مثل هذه المجتمعات لا تلد بالطبع مقاومة تجتذب الأنصار اليها من وراء سياجات الاقطاعات. ولكن بؤرة مقاومة قد تظهر في حضن فئة من الفئات المكونة للشعب، اذا أخضعت هذه الفئة، بالصدفة وقبل الفئات الأخرى، بفعل عوامل داخلية وخارجية، لتجربة قاسية ومؤلمة. ولا تتحول هذه البؤرة الى مقاومة حقيقية، يشارك فيها المجتمع كله دون البدء بازالة السياج من حولها، علامة على أن معايير علاقتها بالفئات الأخرى قد تغيرت، لأن هذه الفئات مرشحة، مثلها للمعاناة، وبالتالي لا سبيل أمام الجميع الا التوحد والاهتداء معا الى وسيلة لمواجهة المحنة التي تعترض وجودهم ونموهم وتقدمهم. ولا بد من الاشارة في هذا السياق الى الفرق بين تأييد المقاومة من جهة انطلاقا من القناعة بعدالة قضيتها وبين الانضواء في صفوفها دفاعا عن النفس. بمعنى أن دعم المقاومة ضد المحتل هو انتصار للحق وللمساواة بين الشعوب. وهذا موقف انساني وحضاري وليس موقفا تمليه العصبية دينية كانت أو قبلية. وأما المشاركة الفعلية بالمقاومة فهي شأن المعتدى عليهم. هم الذين يقررون أساليبها ووسائلها، بالقدر الذي يُمكنهم من ذلك، وعيهم للظروف المحيطة بهم، مع الأخذ بالحسبان أن العدو يبادر دائما الى الهجوم سعيا لاجهاض كل فعل مقاوم لوجوده أيا كان الشكل الذي يتخذه هذا الفعل، وأحيانا يستبقه باحتجاز الآلاف من الأشخاص في معتقلاته على ذمة تقارير واستطلاعات، تنبه الى احتمال استجابة هؤلاء لنداء المقاومة.

لا يمكن اجبار أحد على مقاومة من يعتدي عليه، خاصة اذا كان هذا الأخير من فصيلة القوى المتوحشة والمفترسة التي تُخضع العالم اليوم لهيمنتها اشباعا لرغباتها. ما جرى في لبنان، وما يحدث في العراق وفي فلسطين وفي أفغانستان، هي دلالات على أن هذه القوى لا تقيم وزنا للقوانين وللأعراف، ولا تتورع عن دك المنازل، وعن حبس الطعام، وعن قصف جموع الناس. لقد تسببت الولايات المتحدة بقتل ستمئة وخمسين ألفا من العراقيين في أقل من ثلاث سنوات، أما اسرائيل فان حصيلة عدوانها خلال شهر على لبنان، قاربت الألف ضحية اضافة الى مليون لبناني نزحوا عن بيوتهم، والى تدمير الأبنية السكنية ومحطات توليد الطاقة، والى تخريب الطرقات. ولا شك أن الفلسطينيين يتعرضون لأعمال أشد فظاعة، ولكن الأسوار المحيطة بهم كاتمة للصوت، حاجبة للنظر.

المقاومة هي فعل من أجل تغيير هذا الواقع، هي اسماع صوت الشعوب العربية المحتجة ضد احتلال بلدانها وضد تدمير عمرانها وضد قتل أبنائها، الى الشعوب الغربية التي يعلّلها حكامها ووسائل اعلامهم بأوهام عن قرب بزوغ الديمقراطية في سماء بغداد وعن مناقبية الجيش الاسرائيلي الذي لم تُنزل جرارته منزلا واحدا في الجنوب والذي لم تمزق صواريخ طائراته جسد طفل لا في الدوير ولا في قانا ولا في الشياح.

ولا بد من التوقف أخيرا، أمام المقاومة التي أرادت اسرائيل، بحربها على لبنان، القضاء عليها، والتي استقدمت أفواج من الجيوش الغربية بعتادها المتقدم، مرفقة بوحدات من القوات الخاصة، وبمجموعات من الاختصاصيين في أمور الاستقصاء العسكري، لتقييد حركتها ولرصد مواقعها. لهذه المقاومة عنوان، هو حزب الله، ولها أيضا انجاز، تمثل في قدرتها على مواجهة العدو، طيلة مدة تزيد عن الشهر، وعلى منعه من تحقيق أهدافه رغم استخدامه لكل أنواع الأسلحة حتى المحرم منها دوليا. والدليل على ذلك ما خلفه هذا الاخفاق من فوضى في الوسط السياسي الاسرائيلي، وما ترتب عليه من استدعاء للقوات الغربية الى لبنان.

وبالطبع، فان هذا يضفي على المعركة التي خاضها حزب الله، أهمية بالغة، ويفرد لها مكانة خاصة في التاريخ العربي المعاصر، لأن أبعادها تتجاوز بالتأكيد حدود لبنان، وهرطقات ورثة السياسيين التقليديين وغير التقليديين فيه. والا لما استنفرت دول الغرب جيوشها وأساطيلها. يرتكز هذا الاستنتاج على وقائع المواجهة الميدانية، بين مقاتلي المقاومة من جهة وبين جنود العدو من جهة ثانية. وهنا لا بد من الاعتراف أن هؤلاء المقاتلين قاوموا بثبات وبجدارة، ولا بد من اضافة، «بايمان» جيشا استخدم ضدهم جميع أنواع الأسلحة. والايمان يحتوي ضمنيا على قناعة المؤمن المقاتل، بأنه أقرب الى الله من خصمه، وبأن الله سوف يكون معينا ومؤيداً له، وفي هذا المعنى، يشمل الايمان من اختارهم الله وفضلّهم، وهم استنادا الى عقيدة حزب الله، أهل بيت النبي والذين ينضوون تحت لوائهم ذودا عن ديار المسلمين. ان للصراع ضد الاستعمار الاسرائيلي اذاً، من وجهة نظر هؤلاء «الايمانيين»، طابعا دينيا، موازيا ومضادا في الوقت نفسه، للطابع الديني الذي وسمت به الحركة الصهيونية مشروعها الاستعماري لاجتذاب اليهود الى فلسطين باسم حق «الشعب المختار» في استعادة الأرض التي «وعده الله بها». وهذا كله، لا علاقة له بالطروحات التبسيطية، سواء التي تروجها وسائل الاعلام في الغرب عن العداء للسامية، او تلك التي يرددها الغوغائيون، المعممون وغير المعممين، عن «مساوئ» اليهود. ان عنوان «حزب الله» يختزل ضمنيا، اجابة دينية من المعتدى عليه، على مسألة دينية يتغشّى بها المستعمر. ولكن الجانب الأهم في معركة حزب الله، هو انعكاساتها في المنطقة العربية. لقد سحب هذا الحزب، بعد معركة دامت أكثر من شهر، ذرائع الحكام العرب التي يبررون بواسطتها، تخلفهم عن معاضدة الشعب الفلسطيني، وصمتهم عن جرائم السلطة الاسرائيلية وتنازلاتهم المتواصلة أمامها. ولهذا السبب تحاول الحكومات العربية، ابراز الدمار في لبنان أمام شعوبها، فزاعة واستغباء لها، في الوقت الذي تستقبل فيه مبعوثين من قبل الذين تسببوا به. ان الذين اعتدوا على لبنان، وأرادوا «تخليصه» من مقاومة حزب الله، هم ذاتهم أعداء الشعوب العربية، في فلسطين، وفي العراق. هؤلاء الأعداء هم الثلاثي أسرائيل والولايات المتحدة وأنكلترا، هذه حقيقة بات يعرفها كل طفل عربي. ولكن بالرغم من ذلك لم تتورع بعض الحكومات العربية أثناء الحرب، من الانضمام اليهم «لتخليص لبنان من حزب الله». وأخيراً، وهذا هو الأهم، تضمنت معركة المقاومة، ادانة لا لبس فيها، من قبل حزب الله لكل عربي، يتعامل بشكل أو بآخر مع المستعمِر الاسرائيلي ومع المحتل الأمريكي، ولا سيما اذا كان يدعي أنه مسلم ينهج نهج أهل بيت النبي ضمن اطار ما ذكر أعلاه. وهذا ينطبق على اللبنانيين طبعا، ولكنه موجه من هذا الحزب، بصورة خاصة الى العراقيين.

قد يكون تصاعد أعمال المقاومة العراقية في الفترة الأخيرة ذا صلة بحرب لبنان، وقد يكون اجتماع بعض رجال الدين في مكة مثلها، وكذلك لقاء الحكام العرب «المعتدلين» في القاهرة برئاسة وزيرة الرئيس الأمريكي الذي لا يمكن وصفه بالاعتدال في العراق، كما لم يكن معتدلا في لبنان. ومهما يكن، فان ما قدمه حزب الله، للعرب هو أنه باستطاعتهم مقاومة أعدائهم، شرط أن يبطلوا أولا مفعول حكوماتهم. وليس مؤكدا، أن فصيلا مقاوما، غير حزب الله، كان باستطاعته اعتراض المخططات الامريكية والاسرائيلية، كما فعل في لبنان وفي العراق.

* كاتب من لبنان

هل يتبدّل العالم قريباً؟

محمد خليفة*

■ العالم الذي نعيش فيه هو عالم الفوضى تحكمه قوة غاشمة بطيشها وبطشها وهواها والمتمسكة بالمبدأ المتعالي المستمد من المصلحة المادية تجاه نوع آخر من البشر فيتحكّم فيه نحو عشرين في المئة من الشعوب بنحو ثمانين في المئة من ثروات الأرض. وأما باقي الشعوب فتعيش في فقر وتبعية. وتلك الثروات الهائلة التي تكدّسها الدول الغنية تصرف في معظمها على الملذات وعلى صنع آلات الحرب الجهنمية لقمع الشعوب المغلوبة وتحطيم الأوطان وقواعد المجتمع الانساني كله لابقائها تحت رحمتها وسيطرتها.

والشعوب الغنية لا تعطي الشعوب الفقيرة الاّ من فتات موائدها ، وكثيراً ما يكون هذا العطاء على شكل ديون تستحق بفوائد باهظة، وهي الديون التي تقدمها الدول الغنية للدول الفقيرة عن طريق المؤسسات المالية الدولية. وهناك دول فقيرة أصبحت بكل ما فيها مرهونة لهذه المؤسسات.

وقد تضافرت عدة عوامل أدّت الى اخراج هذا الواقع العالمي الذي يتخبّط في التيه وبشكل مزري، لعل أهمها على الاطلاق ظاهرة الاستعمار. فقد وقعت شعوب العالم النامي في أمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا، منذ القرن السادس عشر ضحايا الاستعمار الأوروبي الظالم. فقد اكتشف الاسبان والبرتغاليون أمريكا واستعمروها منذ القرن السادس عشر، ومدّوا استعمارهم الى جهات أخرى في افريقيا وآسيا. وطمعت الدول الأوروبية الأخرى في أن يكون لها هي الأخرى نصيب من الاستعمار، فنهضت هولندا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا باحثة عن الاستعمار.

ومن ثم استطاعت بريطانيا أن تقضي على جميع منافسيها الاستعماريين وأن تتسيّدهم في مجال الاستعمار. وبسبب مجدها الاستعماري، فقد أصبحت بريطانيا الدولة الأولى في العالم، وأصبحت الليرة الانكليزية هي العملة العالمية الوحيدة التي تقاس على أساسها العملات الأخرى على مدى قرن من الزمان من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى النصف الأول من القرن العشرين. وكانت فرنسا التي اختارت صفة الحليف التابع لبريطانيا قد نالت هي الأخرى حصة استعمارية مهمة في العالم. لكنها ورغم استعمارها الواسع في آسيا وافريقيا، فانها ظلت تؤدي فروض الطاعة للقوة الانكليزية الطاغية ، وظلت تأتمر بأمر هذه القوة. ولذلك استمر التحالف الاستعماري بين هذين الحليفين، لكن الزمن لم يصفُ لهما. فقد وقعت الحرب العالمية الأولى عام 1914، بسبب رغبة ألمانيا والنمسا في اعادة رسم العالم بحيث يكون لهما دور أساسي فيه. لكن الحليفين الاستعماريين العريقين «بريطانيا وفرنسا»، استطاعتا سحق أعدائهما، ودخلت الولايات المتحدة التي كانت تبحث آنذاك عن دور استعماري عالمي الى جانب بريطانيا وفرنسا. وتمكّنت من حصد بعض جوائز تلك الحرب المدمّرة. لكن الشرر تطاير من جديد واندلعت الحرب العالمية الثانية عام 1939، وسقطت فرنسا بكل جبروتها الاستعماري أمام ألمانيا عام 1940. ووقفت بريطانيا تقاتل وحيدة، واشتدّت الضائقة بها، وطلبت مساعدة الولايات المتحدة التي استجابت فوراً، وراحت تمدّ بريطانيا بالسلاح والعتاد والمؤن الغذائية مقابل المال. ولم يطلْ الأمر ببريطانيا حتى أفلست، فاضطرت الى استخدام الذهب الذي سرقته من قوت الشعوب الفقيرة كوسيلة لشراء ما تحتاج اليه من الولايات المتحدة. ولم تنتهِ الحرب العالمية الثانية حتى كانت بريطانيا قد خسرت كلَ مخزونها الذهبي الذي أصبح في خزائن الولايات المتحدة.

ومن ثم أصبح الدولار هو العملة العالمية الوحيدة، وأصبحت الولايات المتحدة تنتج لوحدها ثلثي الانتاج العالمي والثلث الباقي كان ينتجه الاتحاد السوفييتي السابق. وكانت أوروبا الغربية مدمّرة، والعالم الثالث يرزح في معظمه تحت نير الاستعمار البريطاني والفرنسي. ومن أجل مواجهة الاتحاد السوفييتي اضطرت الولايات المتحدة الى مساعدة دول أوروبا الغربية الواقعة تحت سيطرتها وكذلك اليابان من أجل الوقوف في وجه المدّ الشيوعي. وأصبحت هذه الدول مربوطة بعجلة الاقتصاد الأمريكي مما أدى الى انتشار الثراء فيها اسوة بالوضع في الولايات المتحدة. فظهرت منظومة الدول الغنية التي اتخذت عنواناً مميزاً لها عام 1975 وهو مجموعة «الدول السبع الكبرى». وقد شرعت هذه المجموعة في ممارسة دور الرقيب على الاقتصاد العالمي لضمان استمرار تفوّقها الاقتصادي على باقي دول العالم.

لكن استماتة الدول الغنية في منع تقدّم الدول الفقيرة لم يمنع من ظهور قوى اقتصادية عالمية جديدة، وتأتي الصين في مقدمة هذه القوى. فقد أصبحت الصين تنتج أكثر مما تنتجه الولايات المتحدة، وأصبح لدى دولة مثل ماليزيا بنية صناعية متقدمة لا تقلّ عن تلك الموجودة لدى كوريا الجنوبية أو اليابان، مما أدّى الى تغيير المعادلة العالمية، لأن محور الاقتصاد ينتقل من الغرب الى الشرق وينقل معه مركز القوة من الولايات المتحدة الى الصين. وفي المقابل، فان الولايات المتحدة باتت تنتقل من ضعف على ضعف، وهي بوصفها قاطرة اقتصاد الدول السبع الكبرى، فان ضعفها سينعكس مباشرة على حلفائها.

واذا حدث وانهارت، وهو شيء أصبح قريباً، فانها لن تنهار وحدها، بل ستجر خلفها كندا ودول أوروبا الغربية واليابان وكوريا الجنوبية فكل هذه الدول ستنهار اقتصاداتها. والناظر الى واقع حياة هذه الدول يلحظ بوادر أفول هذه الحضارات التي تدلّ جميع الشواهد وبعض الأمارات التي أخذت تبدو واضحة بع